

بسم الله الرحمن الرحيم

## رياض الصالحين

تتمة قصة كعب " سمعت صوت صارخ أوفى على سُلْعٍ يقول بأشد صوته..."

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلا زلنا مع حديث كعب -رضي الله تعالى عنه- حينما تخلف عن غزوة تبوك، وحصل له ما حصل من الهجر، فلما تم له خمسون ليلة وهو على هذه الحال، حتى صاحت عليه الأرض بما رحبت، فبينما هو على سطح بيت له يصلّي صلاة الصبح، فجلس، فإذا هو بصارخ أوفى على سُلْعٍ.

صارخ: أي رجل يصبح بأعلى صوته.

"أوفى على سُلْعٍ" أي: أنه صعد على جبل، يقال له: جبل سُلْعٍ، وهو جبل معروف إلى اليوم، صغير، يقع في الناحية الشمالية الغربية قليلاً من المسجد النبوي، الآن لا يكاد يظهر مع البيوت.

وصعد على الجبل من أجل أن يكون ذلك أبلغ وأسرع من ركوب الفرس، وهذا يدل على ما كان عليه أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- من المحبة، والوفاء، والترابط، والمؤاخاة، يسرهم ما يسر أخوهم، ويسوئهم ما يسوئه، حتى إن الواحد منهم يستبطئ أن تصل البشرة وهو على فرس وهو أسرع ما يمكن في ذلك الحين، فيصعد على الجبل ويصبح بأعلى صوته، ومع هذه المحبة، والأخوة العظيمة التي كانت بينهم لما أمرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بهجرهم استجابوا لهذا الأمر.

فأقول: هذا يبين مرتبة ذلك المجتمع، والانضباط مع أحكام الله -عز وجل-، وأمر رسوله -صلى الله عليه وسلم-، هذا الصارخ جاء عند الواقدي أنه أبو بكر الصديق -رضي الله عنه-، وجاء في رواية في الصحيح أنه رجل من أسلم<sup>(1)</sup>.

صعد وصاح بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر، والبشرة في الأصل هي الإخبار بما يسر، وقيل لها ذلك لظهور أثرها على بشرة المبشر من السرور، والبهجة، والفرح، وما إلى ذلك.

وقد تقال فيما يسوء الإنسان، كما في قوله -تبارك وتعالى-: {فَبَشِّرْهُمْ بِعذَابِ الْيَمِّ} [الإنشقاق: 24] وكما في قول الشاعر:

وَخَيلٌ قد دلفت لها بخيلٍ \* \* تحيةٌ بينهم ضربٌ وَجَيْعٌ

يعني: التحية جعلها الضرب بالحديد، بالسيوف.

وقول الآخر:

يبشرني الغرابُ بينَ أهلي \* \* فقلت له ثكلتك من بشيرٍ

<sup>1</sup> - أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب حدث كعب بن مالك وقول الله -عز وجل-: {وعلى الثلاثة الذين خلوا} ، رقم: (4156)، ومسلم، كتاب التوبة، باب حدث توبة كعب بن مالك وصاحبيه (2120/4)، رقم: (2769).

فلما سمع كعب بن مالك رضي الله عنه- ذلك، قال: "فخررت ساجداً"، عرف أنه قد تاب الله -عز وجل- عليه؛ لأنَّه لم تكن ثمة قضية تورقه، وتهمه، ويحتاج أن يُيشَّر بها سوى هذه القضية، فخر ساجداً، وهذا من الأدب الشرعي في مثل هذه المقامات، إذا حصل للمؤمن أمر محبوب يستحب له أن يسجد الله شكرًا.

وبعض أهل العلم كشيخ الإسلام ابن تيمية يرى أنه لا يشترط له طهارة، ولا استقبال قبلة، فيهوي على حاله ويسجد.

قال: "وعرفت أنه قد جاء فرج، فآذن رسول الله -صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- النَّاسَ بِتُوبَةِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- عَلَيْنَا حِينَ صَلَى صَلَةَ الْفَجْرِ".

الآيات نزلت على النبي -صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في بيت أم سلمة، في آخر الليل، فسألت النبي -صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هل تخبر الناس؟ فنهاها النبي -صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من أجل أن لا يدهمهم الناس، ستحول ذلك الليل إلى نهار، وإنما تمهل النبي -صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حتى صلى الفجر، فأخبرهم بذلك، وأذن الناس: أي أعلمهم -صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بهذه التوبة العظيمة على هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا.

يقول: "فذهب الناس يبشروننا"، أي: انطلقوا يبشرونهم، كأني أراهم يخرجون من المسجد في غاية البهجة، والفرح ليشرعوا هؤلاء الثلاثة.

يقول: "فذهب قَبْلَ صَاحْبِي مُبْشِرُون" ، يعني: ذهب إلى ناحيتهم، وهم: هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وقد ذهب سعيد بن زيد بن عمرو بن نفیل إلى هلال بن أمية يبشره، فوجد أن الرجل قد أنهكه الحزن والبكاء، فما استطاع أن يمشي إلى المسجد، فأركبوه على دابة، وحملوه إلى رسول الله -صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من شدة ما كان به من الإعياء، وذهب إلى مرارة بن الربيع سُلْكَانَ بن سلمة، وقيل: سلامة بن سلمة.

يقول: وركض إلى رجلٍ فرساً يعني: الجري الشديد، وسعى ساع من أسلم قَبْلَيْ، وأوفى على الجبل، يعني: الذي بشره اثنان، رجل على أعلى الجبل بصوته، والآخر ذهب جرياً كجري الفرس، ليبشره ويسبق بالبشرة.

يقول: "فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي".  
الذي جاء على الفرس، بعضهم يقول: هو المقاداد، وبعضهم يقول: الزبير، وبعضهم يقول غير هذا، فالمقصود أن الصوت وصله قبل ذلك.

يقول: فلما جاءني الذي سمعت صوته على الجبل نزعت له ثوبي، من شدة الفرح، ما عنده شيء يعطيه فنزع له ثوبه وكساه إيه، وهذا ما يسمى بالخلع، وهو ما يُكساه المبشر، من جاء بالبشرة يكسى مكافأة له على بشارته، وهذا يدل على أن الذي يستحق البشرة هو الأول إذا تعدد المبشرون.

يقول: "نزعت له ثوبي فكسوتهما إيه ببشراه"، وهذا يدل على مشروعيَّة مكافأة المبشر، يقول: "والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوابين فلبستهما، وانطلقت أتمم رسول الله -صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، أي قصد النبي -صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

يقول: "يتقاني الناس فوجاً فوجاً يهنتونني بالتوبة"، الناس يتلقونه فوجاً فوجاً أي جماعة جماعة، وهذا يدل على عظم هذه التوبة، وعلى عظم محبتهم له، وعلى الحال التي كانوا يعيشونها في الخمسين ليلة هذه، ويدل أيضاً على مشروعيَّة التهنئة، وكما أنه تشرع البشرة في الأمور السارة فكذلك أيضاً تشرع التهنئة، ولا

يُتوقف في مثل هذا، لأنه مما تدعوا إليه مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات، وقد جاءت هذه الشريعة على أرفع الأحوال وأكملها، وبعض الناس يتربّد ويترجّح، ويقول هل نهني بالعيد؟ هل نهني ليلة رمضان إذا أعلنت هلاه أو لا؟ نقول: هذه من الأمور السارة، مما يُفرّج به؛ لأن الأمور التي يُفرّج بها على ثلاثة أنواع: الأول: الفرح بالأمور والمكافئات الدينية، كانتصار الإسلام، وتحصيل أمور كهذه التوبة وما إلى ذلك، **{فَلْ يُبَخِّرْ**  
**اللهُ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلَيُفَرِّجُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}** [يونس: 58] كما تفرح بحفظ ولدك للقرآن، وكما تفرح بدخول شهر رمضان وما إلى ذلك من الأمور السارة، وهذا أعلى أنواع الفرح وأعظمه.

الثاني: الفرح بالأمور المباحة، كفرحه إذا نجح في الاختبار، وفرحه إذا حصل ربحاً في تجارتة ونحو ذلك. الثالث: الفرح على تحصيل معصية الله -عز وجل-، والملاذ المحرمة، فهذا فرح محرم، ومذموم. قال: "يَهْنَئُنِي بِالتَّوْبَةِ، وَيَقُولُنِي لِي: لِتَهْلِكْ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، حَتَّى دَخَلْتَ الْمَسْجَدَ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جَالَسَ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يَهْرُولُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَأَنِي، وَاللَّهُ مَا قَامَ رَجُلٌ مِّنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرِهِ".

طلحة بن عبد الله من العشرة المبشرين بالجنة، قام يهروي أي: يمشي مشية سريعة بين المشية المعتادة وبين الجري، يهروي من شدة الفرح، يدفعه هذا الفرح دفعاً، فتتحرك خطاه بسرعة.

يقول كعب: ما قام رجل من المهاجرين غيره، وهذا يدل على أن التهنئة تكون بالمصافحة، ويدل على أنه لا يأس بالقيام للرجل القادم.

إذا قدم إنسان هل نقوم له أو لا؟ فبعض أهل العلم كالحافظ ابن القيم -رحمه الله- يجعل القيام على أنواع القيام على الشخص، كالذين يقومون على العظماء فهذا لا يجوز، وهذا الذي قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إِنْ كُدْتُمْ لِتَفْعَلُوا فَعْلَ فَارِسٍ وَالرُّومِ، يَقْوِمُونَ عَلَى مُلُوكِهِمْ))<sup>(2)</sup>، وذلك لما صلى جالساً صلى أصحابه خلفه قياماً، فهذا القيام لا يجوز، فهو قيام تعظيم.

النوع الثاني: القيام إلى الشخص الداخل، فيقوم إليه يمشي لاستقباله، فهذا لا إشكال فيه وهو للإكرام. النوع الثالث: وهو مختلف فيه، وهو القيام له للسلام عليه ومصافحته، فهذا من أهل العلم من كرهه، وقال: هذا مما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكان يكره أن يقوم له أصحابه، فيقال: مثل هذا على كل حال ينظر فيه، فإذا كان هذا الإنسان من يستحق كالوالد، أو العالم، أو الإنسان الإمام العادل، أو الرجل الكبير في السن أو نحو ذلك فلا يأس أن يقام له، ولو تحرك الإنسان خطوات نحوه، فهذا أحسن، وأما القيام له إذا كان يقع في خاطره ونفسه أنك متكبر، وتتحول القضية إلى شحناء وعداؤه فقم واقطع باب الشر، وأما إذا كان هذا الإنسان فاجراً لا يستحق القيام، معلناً بفسقه، فإنه لا يقام له والإكرامه، إلا أن يترتب على ذلك مفسدة، وأما القيام لغير السلام والمصافحة فيقوم إذا دخل، ويجلس إذا جلسوا لهذا أمر لا يسوغ إطلاقاً، ولا ينبغي لأحد أن

<sup>2</sup> - أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب قيام الرجل للرجل القاعد (327/1)، رقم: (948)، وصححه الألباني.

يقوم هذا القيام، ولا لهذا القيام، ولا فائدة فيه إلا مزيداً من المذلة والمهانة التي لا يرضها المسلم لنفسه بحال من الأحوال.

وفي قصة بنى قريظة لما جاء سعد بن معاذ -رضي الله تعالى عنه-، ليحكم فيهم، وكان قد جرح بأكحله فجيء به من المسجد على حمار، فلما وصل قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه وقومه -وهم الأوس-: **(قوموا إلى سيدكم)**<sup>(3)</sup>.

فمن أهل العلم من حمل هذا الحديث على جواز القيام، ومنهم من قال: هذا قيام إليه، يعني: يمشون إليه لاستقباله، ومنهم من قال: هذا قيام له من أجل أن يعيشوه وينزلوه من الحمار؛ لأنه جريح مريض، ومنهم من قال: ليكون ذلك أ NSF لحكمه؛ لأنه الآن سيحكم في بنى قريظة، وقد حكم فيهم بقتل جميع من يقدر على حمل السلاح، من شارك في القتال، ومن لم يشارك، وسببي الذرية والأموال، فهو حكم ليس بالسهل، فعددهم بين الأربعين والسبعين، يقتلون.

وانظر كيف اعتقد كعب بن مالك -رضي الله عنه- بهذا الفعل البسيط من طلحة -رضي الله عنه- ولم ينس هذا الفعل، وقال: ما قام إلى أحد من المهاجرين غيره، فهذا يدل على أن الإنسان قد يفعل فعلًا بسيطًا يكون له أبلغ الأثر، وهذه أمور كثيرة ما نفرط فيها ولا نتباهي بها.

لما كنا ندرس في الجامعة في مرحلة الماجستير كان لنا زميل، وكان ضعيف العلم والعمل وحتى الرأي، ودخل بطريقة أو بأخرى في برنامج الدراسة، فكان الجميع لا يرتضون سيرته، ولا يرتضون طريقته في التعامل، والمحادثة، والمناقشة، وليس في العلم ولا في العمل، لا في العبر، ولا في النفي، فغاب ثلاثة أسابيع أو شهراً، ولم يسأل عنه أحد، فجاء فجأة فدخل والشيخ يشرح، وكان العدد قليلاً خمسة أو ستة، فقمت من بينهم أثناء الدرس -والشيخ يشرح- فعانته وسلمت عليه، فجلس، فمرت الأيام فغضب عليهم غيبة لسبب آخر فيما بعد، فإذا هو يتكلم بشعور أو بغير شعور، فكنت ألاطفه وأهدئه، وأقول له: هؤلاء إخوانك، وما ينبغي أنك تحمل عليهم، وتتضرر إليهم بسوء الظن هذا كله، فذكرني بهذا الحدث، وقال: تذكر حينما أتيت، وكنت قد انقطعت هذه المدة، وكنت في المستشفى ما قام إلى أحد غيرك، هذا يدل على أن هؤلاء الناس لا يعنون بحقوق الأخوة، ولا يرفعون لي رأساً، ولا يكترون بي.

تصرف بسيط لم يكن محسوباً انظر كيف أثر فيه، فأقول: يا إخوة كلمة بسيطة، مواساة بسيطة لإنسان مريض، زيارته لا تكلفك شيئاً، قد تكون علاقتك فيه سطحية، لكن هذه الزيارة تزرع في نفسه أبلغ الأثر، أعرف بعض الناس اهتمى وكان مسرفاً على نفسه، ولا يحب أهل الصلاح والفضل بسبب زيارة، أنه مرض مما زاره أحد من أصحابه، وزاره أحد الصالحين الذين كان ينتقدتهم ويعييهم، مما نسيها له، واستقام وصلحت حاله، بسبب زيارة.

<sup>3</sup> - أخرجه البخاري، كتاب المغازى، باب مرجع النبي -صلى الله عليه وسلم- من الأحزاب ومخرجـه إلى بنى قريظة ومحاصرته أيام (1511/4)، رقم: (3895)، ومسلم، باب جواز قتال من نقض العهد وجواز إزالة أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل الحكم (1388/3)، رقم: (1768).

وأنا كنت أتعجب من تصرفات أراها من بعض الطلبة، الأستاذ يأتي وليس له كرسي، ولم يجد مكاناً يجلس عليه، فيذهب يبحث الأستاذ بنفسه ويأتي بكرسي ويضعه، والذي نعرف وعهدهنا عليه الناس أن الطلاب يتسابقون يحضرون له، وإذا خرج فتحوا له الباب، فأتينا قوماً لا يرفعون لهذه الأمور رأساً، ولا يكترون لها، ولا يعرفونها.

فسألت مرة في مناسبة من المناسبات أحد الطلاب، قلت: أنا أتعجب من هؤلاء الطلاب، أنا لا تحملني الأرض وأرى إنساناً أكبر مني يبحث عن كرسي، فقال: لا، هذه نظرة أخرى، حتى لا يفسر ذلك بالملق، فيترك ما يجمل ويسعد حتى لا يقال عنه: إنه متلقي لأستاذ.

فأسائل الله -عز وجل- أن يوفقنا وإياكم للخير، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.